الفصل التاسع

# المسلمون فى الغرب
# مواطنون ذوو ولاء أم طابور خامس؟

إن أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وتأثيراتها الدراماتيكية قد أثارت الاهتمام بالجماعات المسلمة فى الغرب كما لم يحدث من قبل. فحقيقة كون القائمين على التخطيط لذلك الاعتداء قد اتخذوا من ألمانيا مكانا لهم، فضلا عن قضائهم لوقت طويل فى الغرب قد استدعى الملف المضطرب بالفعل للمسلمين فى أوروبا على نحو غير مسبوق. فهل المسلمون فى الغرب باعتبارهم الآن أعداء – طابور خامس بانتظار إشارة بدء الهجوم؟ لقد أضحى التعبير الصريح من قبل الأوروبيين والأمريكيين عن المشاعر الدفينة الكامنة والعميقة المناهضة للإسلام أكثر قبولا فى ظل المخاوف الكامنة من المناخ الأمنى الجديد.

obeikandl.com

لقد حل العنف، بالفعل، فى أوروبا ذاتها. ففى آذار/مارس ٢٠٠٤، انفجرت مجموعة من القنابل فى العديد من عربات القطار بمدريد مما أسفر عن مقتل ١٩١ شخصا وإصابة أكثر من ١٨٠٠ . وقد نسبت المؤامرة إلى أشخاص مسلمين من شمال إفريقيا تأثروا "بإلهام" تنظيم القاعدة و"وحيه"، وإن لم توجد أية أدلة تشير إلى وجود رابطة مشتركة. وفى تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٤، صدمت هولندا جراء حادث الاعتداء الوحشى الذى تم فى رابعة النهار، وأسفر عن مقتل الكاتب ومنتج الأفلام الهولندى "ثيو فان جوخ"، والذى وجد أن قاتله مواطن هولندى مغربى المولد أصبح راديكاليا خلال حرب العراق. وقد كان "فان جوخ" والذى سبق له أن قام بالسخرية من اليهود مصابا بتعصب أحمق، ومناهضا صريحا للإسلام. وقد أنتج فيلما قصيرا حيث عرض آيات من القرآن على جسد يتلوى لامرأة عارية كصرخة احتجاج ضد "التمييز الإسلامى ضد المرأة". أما القاتل، فقد أحدث صدمة حتى



obeikandl.com

داخل الأوساط الأوروبية الليبرالية مفادها وجود جماعات من الأجانب يهتم بعضهم "بالاعتبارات الدينية" اهتماما يدفع إلى ارتكاب جرائم واعتداءات.

وفى تموز/يوليو ٢٠٠٥، قام العديد من مسلمى بريطانيا بسلسلة تفجيرات انتحارية بمترو الأنفاق بلندن أسفرت عن مقتل ٥٢ شخصا وإصابة ٧٠٠ . وقد زعم أن مرتكبى الانفجار قد تأثروا كثيرا بمشاركة بريطانيا فى الحرب بالعراق. كذلك، ففى حزيران/يونيو ٢٠٠٧، قام مسلمان – أحدهما طبيب بريطانى من أصول عراقية، بقيادة ناقلة شحن تحمل أنابيب معبأة بغاز "البروبان"، والانطلاق بها صوب بوابة مطار غلاسكو. ولم يسفر الاعتداء عن أية قتلى، وإنما خلف العديد من المصابين. وكما سبق، فقد أعزيت دوافع ذلك الحادث إلى أن تكون ذات صلة بالأحداث الدائرة فى العراق آنذاك.



obeikandl.com

وفى تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٧، اندلعت الاضطرابات لعدة أيام بالقرب من باريس على أيدى مهاجرين أفارقة وعرب استشاطوا غضبا من مشكلتهم فى سعيهم للاندماج بداخل الثقافة والاقتصاد الفرنسيين. وخلال تلك الاضطرابات، تم تدمير العديد من الممتلكات، وإن لم يتم استخدام أية تكتيكات إرهابية على الإطلاق.

وقد أسهمت جميع تلك الحوادث فى استحضار ظاهرة وجود المسلمين فى أوروبا واستدعائها إلى مقدمة الاهتمامات وصدارة المشهد، عن طريق طرح الأسئلة عن ولاء أولئك المسلمين، ورغبتهم، وقدرتهم على الاندماج داخل المجتمع الأوروبى. ومن الأسئلة التى تطفو على السطح، بداهة : هل هناك ثمة "اختلاف" يصبغ الإسلام ... اختلاف من شأنه إدراج المهاجرين المنتمين للإسلام ضمن فئة مستقلة عن فئات يشغلها مهاجرون آخرون؟ أو دعنا نصيغ السؤال على نحو مختلف: إذا لم يكن هؤلاء المهاجرون مسلمين، أكان للمشكلات والقضايا ذات الشأن أن تبدو مختلفة بالكلية؟ والإجابة عن السؤال بصيغتيه هى ... النفى المطلق.

وقد حذر "طارق رمضان"، أحد أبرز الباحثين الأوروبيين المسلمين، من مغبة ما أسماه "الوقوع فى شرك أسلمة المشكلات"، بمعنى أن تعزى مشاكل المجتمع المسلم، بصورة أو بأخرى، إلى "الإسلام". ويستطرد "رمضان" قائلا : "لدينا مشكلات اجتماعية ... ولدينا مشكلات اقتصادية ... ولدينا مشكلات حضارية. وجميع تلك المشكلات لا ترتبط ألبتة بالدين، بل ترتبط بالسياسات الاجتماعية المتبعة ... بيد أنه عندما يكون لدينا سياسيون يفتقرون إلى حلول اجتماعية، فإنهم يعمدون إلى الزعم بأن تلك المصاعب الاجتماعية إنما تنشأ من حقيقة كون هؤلاء الأفراد مسلمين أو عرباً". وبعبارة موجزة، ستواجه أوروبا، بل إنها لتواجه بالفعل، مشكلات كبيرة تتعلق بالمهاجرين إلى أراضيها من العالم النامى خلال تلك الحقبة من عصر العولمة الذى نعيشه، حتى ولو لم يكن ثمة إسلام على الإطلاق.

إن أوروبا تمثل "حدودا" جد مغايرة أمام المسلمين عما تمثله روسيا أو الهند

أو الصين. فالمسلمون فى أوروبا ليسوا من السكان الأصليين، بل هم مهاجرون جدد ممن تركوا أوطانهم، طواعية وعلى نحو فردى، للهجرة إلى بلدان غير إسلامية ابتغاء للعمل وإقامة أسر جديدة. وفيما ذهب البعض للعمل فى أوروبا باعتباره نقلة مؤقتة اقتضتها ظروف بذاتها واستهدفت أمورا مادية، إلا أن قرارهم كان ينحو، على نحو مطرد، صوب الاستقرار والإقامة الدائمة فى أوروبا، ومن ثم سعيهم للحصول على جنسية البلدان التى يحيون بها، وقبول وضعهم كأقلية فى مجتمع تسوده أغلبية مغايرة.

وبطبيعة الحال، تختلف الحياة فى أوروبا المعاصرة ذات التعدد الثقافى اختلافا كليا عن الحياة فى معظم البلدان على امتداد العالم مما يستتبع انبثاق قضايا متجددة ومعقدة تتعلق بهوية المهاجرين. وفى معظم الحالات، تمثل أوروبا أول احتكاك للمسلمين بمجتمع تحل بالكلية من مظاهر الإثنية والدين ... ذلك المجتمع الذى لم تعد فيه تلك المظاهر ذات أهمية فى الحياة، إلى أن بدأت أفواج تترى من المهاجرين تطأ الأراضى الأوروبية. كذلك، فقد كانت الخبرة والتجربة الأوروبية جديدة بالنسبة للمهاجرين المسلمين – وكذلك بالنسبة لأغلب المهاجرين الوافدين إليها من بلدان العالم النامى.

وعلى نقيض أمريكا الشمالية، فإن أوروبا، بطبيعتها، ليست مجتمعا مهاجرا، إذ تشكلت من قوميات وثقافات أوروبية غربية تالدة وعريقة يغلب عليها نمط الحياة المحافظ. ويقينا، كان "الآخر" المسلم مألوفا تماما لأوروبا كونه العدو التاريخى اللدود لها – ولكنه غالبا ما كان عدوا بعيدا ... جغرافيا. ففى عام ٧٣٢، قامت أوروبا بطرد الجيوش العربية من بواتييه بإسبانيا المسلمة آنذاك – واعتبرت، بذلك، أنها قد أنهت، وللأبد، أى احتمال لغزو إسلامى مستقبلى، وأية "أسلمة" محتملة لأوروبا. وقد تقابل كل من الأوروبيين والمسلمين فى ساحة الوغى أثناء الحروب الصليبية. وفى عام ١٤٩٢، وضع الملك فرديناند والملكة إيزابيلا نهاية قاسية لسبعة قرون من الحكم العربى للأندلس ... ذلك الحكم الذى اتسم بالتعددية، حيث تجاورت

الثقافات الإسلامية، والمسيحية، واليهودية على امتداد الأراضى الإسبانية – تلك النهاية التى سطرت لإطلاق أول برنامج أوروبى للتطهير العرقى، إذ شهد العام المذكور طرد المسلمين واليهود من إسبانيا. كذلك، فقد أوقفت الجيوش البولندية زحف القوات العثمانية عام ١٦٨٣ أثناء حصار فيينا ... أقصى بقعة توغلت إليها الجيوش العثمانية فى أوروبا الشرقية. ثم مرت الأيام، لتقوم أوروبا نفسها بغزو جميع الدول الإسلامية واحتلالها، تقريبا، على امتداد المعمورة. وفى وقت لاحق، جاهدت أوروبا لإخماد المقاومة المناهضة للكولونيالية، والتى أشعلتها الجماهير المسلمة. كذلك، فقد سيطرت أوروبا على جميع ما يتعلق باستخراج البترول وإنتاجه فى الأراضى الإسلامية قبل أن يدور الزمان دورته، وتسترد الشعوب الإسلامية حقها فى مواردها. ولقد كانت محاولات فرنسا للإبقاء على سيادتها على الجزائر محاولات شديدة الدموية، وأضحى الجزائريون هدفا للكراهية والعداء فى فرنسا ككل. لذا، فإن تجربة أوروبا التاريخية وذكرياتها بشأن تعاملاتها مع المسلمين عامة لم تكن إيجابية على الإطلاق. ولكن خلال النصف الثانى من القرن العشرين، انبثقت علاقات جديدة لم تكن متوقعة بين أوروبا من جهة، وبين المسلمين من جهة أخرى، وذلك فى أعقاب مجىء أعداد كبيرة من المسلمين إلى الأراضى الأوروبية كمهاجرين.

## من مسلمو أوروبا؟

يمثل المسلمون نحو ٥٪ من مجموع سكان الاتحاد الأوروبى. وتحظى فرنسا بنصيب الأسد من إجمالى عدد المسلمين بأوروبا (٤,٥ مليون مسلم)، تليها ألمانيا التى تستأثر بنحو ثلاثة ملايين مسلم، فبريطانيا (١,٦ مليونا)، وأكثر من نصف مليون مسلم فى كل من إيطاليا، وهولندا – كل على حدة. أما النمسا وبلجيكا فيوجد فى كل منهما أقل من نصف مليون مسلم. وبالنسبة لإجمالى عدد المسلمين بأوروبا، فإن نحو ٥٠٪ منهم قد ولد بالمهجر.

ولقد شهدت ستينيات القرن العشرين أول هجرة جادة للمسلمين إلى أوروبا ... تلك الهجرة التى جاءت كاستجابة لحاجة أوروبا، آنذاك، إلى عمالة تقوم بأعمال بعينها يستنكف الأوروبيون ويترفعون عن القيام بأمثالها، وبذلك بدأ عصر "العمالة الوافدة". كذلك، فما كان ينظر إليه على أنه "ترتيبات مؤقتة" من قبل الطرفين، سرعان ما أضحى أمرا شبه دائم. ولقد ازدادت أعداد المهاجرين حين شرعت البلدان الأوروبية فى السماح للعمالة الوافدة باصطحاب أفراد من عائلاتهم ونويهم للانضمام إليهم بالمهجر. وقد مثلت الخلفيات السوسيواقتصادية للمهاجرين مشكلة رئيسية أمام أوروبا : إذ كانت نسبة كبيرة من المهاجرين عمالة غير مؤهلة وغير ماهرة تفتقر إلى درجة مقبولة من المستوى التعليمى ... تلك العمالة كانت أقل استعداداً للتواؤم مع المجتمع الأوروبى، والاندماج فى نسيج النظام الاجتماعى هناك، وقد انجرفت تلك الطبقة نحو تكوين "غيتو إثنى" ينتظم أفرادها. وتتعارض أصول الطبقة العاملة السائدة من المهاجرين المسلمين بأوروبا مع الخلفيات العملية المتخصصة والماهرة للمهاجرين المسلمين فى أمريكا الشمالية.

وتنحدر أصول المهاجرين من المسلمين بأوروبا من أصقاع متفرقة على امتداد العالم : ففى فرنسا، تنحدر غالبية المهاجرين المسلمين بها من دول شمال إفريقيا، أما نظيرتها فى المملكة المتحدة فتأتى، بالأساس، من دول جنوب آسيا، وفى ألمانيا، فإن معظم المهاجرين من المسلمين قد قدموا من تركيا، ومن البوسنة وكوسوفو لاحقا. فإذا ما أردنا تقييم المهاجرين وفقا للمعيار الإثنى، نجد أن العرب يشكلون ٤٥٪ من إجمالى المسلمين المهاجرين بأوروبا، يليهم الأتراك، فمواطنو جنوب آسيا. أما الجماعات المسلمة الأخرى، فيتم تمثيلها بأعداد أقل بكثير. ومن الجلى أن هيكل المهاجرين المسلمين فى أوروبا يتسم بالتنوع، سواء وفقا للمعيار الإقليمى أو وفقا للغة أو اللسان الذى ينتمون إليه، لذا فلا يستقيم أن نعتبر ذلك الهيكل متناغما أو متجانسا.

وكما أوضحت "جوسيلين سيزارى"، باحثة العلوم السياسية بجامعة السوربون

بفرنسا، فإن "الوضع السوسيواقتصادى للمسلمين الأوروبيين هو وضع بالغ الهشاشة"، خاصة عندما يتم تصويره باستخدام معدلات البطالة السائدة. فالبطالة المنتشرة فيما بين المسلمين بأوروبا تعد أعلى بكثير من نظيرتها الخاصة بغير المسلمين. ففى هولندا، نجد أن ٣١٪ من المغاربة، و٢٤٪ من الأتراك عاطلون عن العمل. أما الأمر الأكثر إزعاجا فهو أن معدلات البطالة بين الشباب المسلم كانت فى عام ١٩٩٥ ضعف نظيرتها بين غير المهاجرين المنتمين للمستوى ذاته من التحصيل الدراسى. أما فى المملكة المتحدة، فإن معدل البطالة بين المهاجرين من بنجلاديش، وباكستان يبلغ ثلاثة أمثال نظيره بين غير المهاجرين، أما فى المدن الهامشية، فإن ما يقرب من نصف المهاجرين من بنجلاديش عاطل عن العمل. بل الأسوأ من ذلك، "انتقال ذلك التهميش إلى الجيل الذى ولد وتلقى تعليمه فى بريطانيا".

إن المشكلة القائمة تغذى نفسها ذاتياً، إذ يصعب على المسلمين من الطبقة العاملة، وأولئك ممن تلقوا نزرا يسيرا من التحصيل الدراسى أن يندمجوا فى نسيج المجتمع الأوروبى، أو حتى التواصل مع الثقافة هناك، ونتيجة لذلك يشعر هؤلاء بكونهم مهمشين، فضلا عن النظر إليهم كدخلاء بما يشعرهم دائما بالغربة والانعزالية فيفضلون أن يحتموا داخل شرنقتهم الثقافية والحضارية، مما يساعد فى التأكيد على الصورة النمطية لمقاومة المسلمين للاندماج داخل المجتمعات المهاجر إليها. كذلك، تتوالد مشاعر الاستياء، وتغدو رمزية التمايز فى اللباس والمأكل واللغة أكثر تعبيرا عن مشاعر كلا الطرفين وانفعالاتهما. وتبدو هولندا التجسيد الأمثل لإحدى أدق الأمثلة على تلك المشكلة. فقد صدر تقرير عن البرلمان الهولندى عام ٢٠٠٤ جاء به : "إن المجتمع ذا التعددية الثقافية كان إخفاقا مخيبا للآمال، إذ أدى انتشار "الغيتو الإثنى"، على تعدد مستوياته، وكذا الثقافات العديدة غير المنتمية لثقافة المجتمع – إلى تمزيق أواصر الدولة، وغدت خطورة ظاهرة "الاستقطاب" لا سبيل إلى تجنبها سوى تحول المهاجرين المسلمين ليصبحوا

مواطنين هولنديين". بيد أن ما خلص إليه التقرير جاء محبطا وصادما، إذ إن صيغة الحل المقترح بأن يصبح المسلمون ... "مواطنين هولنديين" قد أصابها العوار. فماذا يقصد بأن يصبح المرء "هولنديا"؟ أينصرف ذلك إلى عدم تمييز ذلك "المتحول" عن سائر المواطنين الهولنديين التقليديين سوى من خلال سماته وخصائصه الظاهرية البادية للعيان؟ أم يتحتم على الراغب فى التحول التخلى التام عن سماته اللغوية والثقافية الأصيلة المميزة له ولموطنه الأم؟ أم أن ثمة حداً أدنى من السمات "الهولندية" التى يتعين أن يكتسبها المرء، دون غيرها من السمات؟ وبالاحتكام إلى المشاهد فى العديد من البلدان، نجد أن الاندماج والاستيعاب داخل نسيج المجتمع المهاجر إليه عملية تتطلب انقضاء سنين عدة، وتعاقب أجيال تلو الأخرى ... إذا كان المراد تأسيس نوع من التثاقف الجدى، ناهيك عن الاندماج الفعلى فى المجتمع.

بيد أن المشكلة المذكورة لا تقتصر على الإسلام فحسب، فأية جماعة من العمال غير المتعلمين والذين ينتمون إلى العالم النامى لديها المشكلات ذاتها فيما يتعلق باندماجها فى المجتمع. إلا أنه يجب علينا، كذلك، ألا نغفل العامل الذى يمثله "الإسلام" نتيجة ظاهرة اجتماعية مثيرة أخذت تنتشر الآن بين صفوف المهاجرين : انبثاق هوية جديدة من "المسلمين الأوروبيين". فالمهاجرون الجزائريون، والأتراك، والباكستانيون ممن لهم روابط مباشرة بأوطانهم الأم قد قادوا مسيرة انتشر صداها ما بين مهاجرى الجيل الأول إلى أوروبا، وخلقت "هوية إسلامية" جديدة تماماً -بتميزها عن "هوية إثنية" ترتكن، بالأساس، إلى الأصول القومية للمهاجر. وتأتى هذه "الهوية الإسلامية" كاستجابة مباشرة لتحلل المهاجرين من الروابط التى كانت تشدهم إلى أوطانهم الأم- والتى أضحت الآن ثقافة آبائهم البعيدة وغير الملائمة لأوضاعهم الجديدة ببلدان المهجر. وتتيح "الهوية الإسلامية" رابطة مشتركة عبر خطوط إثنية بالتوازى مع تجارب وخبرات اجتماعية مشتركة بما فيها التمايز كأقلية جديدة فى المجتمع الأوروبى. إن الجيل الجديد أوروبى المولد يتحدث لغات

أوروبية بطلاقة، ويختلف إلى المدارس الأوروبية. ورغما عن هذا كله، يتم إقصاؤه وتهميشه لأسباب سوسيواقتصادية فيلجأ إلى "الإسلام" كهوية إثنية بينية، وذلك فى ظل غياب أية هوية أخرى يمكن الانتماء إليها. إلا أن لجوء ذلك الجيل للدين بتبنيه "هوية إسلامية" يثير الشكوك من حوله فى أوروبا التى هجرت الدين، ونحته جانبا.

إن الأزمة الحالية هى أزمة مزدوجة. فنتيجة للمأزق الذى تواجهه جراء الهجرة إلى أراضيها، فإن أوروبا تواجه الآن أزمة هوية خاصة بها، يتم بموجبها إعادة تقييم عملية مواجهة العولمة برمتها، والتعامل مع التعددية الثقافية القائمة. أما العنف المتفشى فى إقليم الشرق الأوسط، على امتداده، فلا يعبأ به المهاجرون المسلمون فى أوروبا كثيراً، إلا أن حفنة من الحوادث العنيفة بأوروبا، والضالع فيها مسلمون أوروبيون لجديرة بأن تستثير مخاوف أوروبا من "الإسلام" – والتى تؤدى، بدورها، إلى تعزيز "الهوية الإسلامية" للمهاجرين وترسيخها. وبالطبع، فنحن إزاء "حلقة مفرغة". فهل يكون تبنى "هوية إسلامية" جديدة، لا ترتكن إلى البعد الإثنى، خطوة للأمام نحو المزيد من اندماج المهاجرين فى بلدان المهجر؟ أم يكون خطوة باتجاه تعزيز روح تضامنية اجتماعية جديدة يصعب استيعابها فى نهاية المطاف؟

إن القلق الذى يساور أوروبا بشأن عمليات الاستيعاب والاندماج له وجاهته ومبرراته. فربما كان المسلمون الآن، فى حقيقة الأمر، من أصعب الجماعات الثقافية لأن تستوعب بالكامل، وذلك، تحديدا، بسبب القوة الهائلة والعزيمة الماضية التى طالما ميزت تلك الثقافة عبر أزمنة طوال من اعتداد بالنفس، وإدراك للذات فضلا عن همة عالية وتصميم شديد على حماية المجتمع الإسلامى، والحفاظ على مقومات الثقافة الإسلامية. وفضلا عن ذلك كله، فإن "الإسلام" ليضفى قوة اجتماعية جديدة على مهاجرى الجيل الأول تمكنهم من مجابهة مصاعب عملية الاندماج فى بلدان المهجر.

واليوم، فإن الأمر يتعلق بالاحتفاظ "بهوية إسلامية" أكثر من ارتباطه بهوية

إثنية أو أخرى لغوية. فقد يبتهج المرء بتعلم اللغة الهولندية، والعمل ضمن إطار المجتمع الهولندى، إلا أنه لا يرغب فى التنازل عن "هويته الإسلامية". إن الاندماج الكامل لن يكون مفهوما ذا شأن بالنسبة لأغلب الأقليات غير الغربية إذا أريد به أن يكون من الصعب تمييز المهاجر عن المواطن الهولندى الأصيل، أى عن طريق اندثار ثقافته الأصلية بالكلية. فالعبرة هى فى كيفية أن يجمع المرء بين كونه مسلما وكونه هولنديا، وهو أمر يمكن تحقيقه بالفعل. فإذا كان المراد أن يرتضى المرء القيم المدنية الهولندية، وأن يكون مواطنا مستقيما، راغبا فى المشاركة فى المجتمع الهولندى، والمساهمة فى ارتقاء الأوضاع بهولندا، إذاً فمن السهولة بمكان أن يصبح المرء هولنديا. وبذا، تفقد القضية حدتها وإلحاحها بتعاقب الأجيال.

والمأزق المذكور له نظائر وأشباه تتعلق بهواجس اليهود المبكرة ومخاوفهم بشأن مظاهر عملية الاندماج فى المجتمع الأمريكى، إذ يشير الباحث الأمريكى "إيريك غولدشتاين" إلى أن :

العقود الأولى من القرن التاسع عشر قد جلبت للمهاجرين اليهود النازحين من بلدان وسط أوروبا فرصا غير مسبوقة للتكامل الاجتماعى. وبينما أثارت تلك الفرص حماسة اليهود، إلا أنها قد ولدت لديهم مشاعر القلق حول الحدود التى يتعين أن تفصل بينهم وبين باقى المجتمع. وقد نشأ الجانب الأكبر من مشاعر القلق تلك من التوترات بين رغبة اليهود فى التكامل مع المجتمع الجديد من جهة، وبين رغبتهم فى الاحتفاظ بهوية يهودية مميزة. إن تاريخ معاناة اليهود من الاضطهاد والإقصاء المجتمعى قد أضفى عليهم حسا ووعيا اجتماعيا قويا كأقلية ... ذلك الوعى الذى يصعب عليهم التنازل عنه، والذى جعلهم يضفون قيمة عالية على استدامة الجماعة وبقائها. وبما أنه قد تم النظر إلى الروابط الاجتماعية على أنها القوة الحمائية التى ضمنت استمرارية الجماعة اليهودية فى الماضى، فإن معظم اليهود يكرهون المساس بتلك الروابط.

تلك هى الأمور التى تشغل بال الجماعة اليهودية – باعتبارها أقلية ذات ثقل تاريخى وثقافى لا ترغب، عامة، فى الاندماج فى المجتمعات التى تحيا بها، خوفا من خطر الذوبان، بل والتلاشى كلية. إذ لم يندمج اليهود جيدا فى الثقافتين الأمريكية والأوروبية لآماد طوال، وكانوا هدفاً لممارسة التمييز ضدهم حتى أزمنة عاصرتها الذاكرة الحية للشعوب. إضافة إلى أن اليهود، وعلى امتداد عقود طويلة، قد تم الربط بينهم وبين الحركات والتنظيمات الراديكالية، وكذلك الإرهاب الفوضوى ... الأمر الذى سيطر على المخيلة الغربية فى بدايات القرن العشرين بما يشبه الإرهاب الذى يعزى إلى المسلمين اليوم.

وبالطبع، فإن وضع المسلمين اليوم يختلف اختلافا جليا عن وضع اليهود من مناح عديدة. فالمسلمون، اليوم، قد صاروا هدفا وموضعا لشكوك عميقة سافرة ومستترة، بل لقد أصبحوا هدفا يمارس ضده التمييز وفقا لأسس قانونية لمجرد الاشتباه فى أى أمر يمس القضايا الأمنية. فالمسلمون فى الغرب بانتظار الحصول على مزايا انضباط السلوك السياسى العام ومنافعه، وتظل سماتهم وثقافاتهم هدفا دائما للتندر، والسخرية، والتهكم، والكراهية على نحو لم يعد المجتمع الغربى يسيغه فيما يخص الأمريكيين من أصول إفريقية، أو اليهود، أو السكان الأصليين لأمريكا.

إذاً، يدور الجدل الرئيسى، هنا، حول المشكلات المتعلقة بالهجرات الكثيفة الملونين إلى الغرب، فى وقت يشهد توترات جيوبوليتيكية بالغة فى العالم الإسلامى نفسه. كذلك، فإنه من المؤكد أن "الإسلام" يخلق مناخا للترابط الاجتماعى، وينشئ روابط عالمية واسعة المدى بالمقارنة بأكثرية الجماعات المهاجرة الأخرى. فقد شهدت الولايات المتحدة الأمريكية، من قبل، أقليات عصية على التواؤم والاندماج بالمجتمع، كالهنغاريين، والإيطاليين، والإيرلنديين، والصينيين، وبالطبع اليهود ... أولئك جميعا ممن كان ينظر إليهم على أنهم ينتمون إلى عشيرتهم فحسب، وهو ما يعكس، إلى حد كبير، غياب أى بديل مجتمعى آخر.

## اليسار والإسلام (التحالف الشائن)

فى السنوات الأخيرة، تولدت بعض المخاوف لدى الجماعات المناصرة للصهيونية وجماعات المحافظين الجدد من أن تحالفا خطيرا ومريبا قد أخذ فى شق طريقه بين "اليسار" و"الإسلام" : وهو تحالف نشأ فى أوروبا يقضى بأن "تحصل الأحزاب اليسارية على عدد من العملاء الجدد ... أقصد الناخبين ....، فى مقابل حصول المسلمين على امتيازات ومعونات، بالإضافة إلى الإبقاء على الحدود مفتوحة، بدرجة أو بأخرى، أمام هجرات المسلمين".

أما التقارب الثانى بين الطرفين فيتمحور حول "كراهية أمريكا"، والتى يتقاسم اليسار مشاعرها، عن جدارة، مع الإسلاميين. لذا، يشار إلى تعاطف الإسلاميين وتجاوبهم مع الانتقادات اليسارية لأمريكا والغرب ... والعكس بالعكس. وفى هذا الإطار، كتب المراقب الأمريكى "ويليام ليند" : "إن الذى أدى إلى وقوع التفجيرات الأخيرة فى لندن (تموز/ يوليو ٢٠٠٥)، فضلا عن العديد من الحوادث الأخرى التى ستقع تباعا فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية – هو بلا شك "الحلف الماركسى–المحمدى". فمرة أخرى، أبرم العدوان اللدودان، الماركسية، وتحديداً، الماركسية الثقافية، والتى تعرف "بالانضباط السياسى"، والإسلام – صفقة شيطانية يلتزم بموجبها كل طرف بمؤازرة الطرف الآخر ضد العدو المشترك ... مآثر الغرب المسيحى".

ولعل الإشارة التى انطوت عليها الجدالات بهذا الشأن هى أن المحافظين الجدد قد لمسوا، بالفعل، جانبا من الحقيقة : التعاون المحتمل بين مختلف الجماعات السياسية على امتداد العالم، والتى تناهض الأعراف الغربية والأمريكية فى السيطرة والهيمنة، وتسعى جاهدة للتعاون من أجل إبطال مفعولها. إلا أن المحافظين الجدد يروق لهم أن ينعتوا سعى أمريكا الدءوب للإبقاء على الهيمنة الأمريكية أحادية القطب بأنه "سعى للحفاظ على التقاليد اليهودية–المسيحية". وبينما تمثل التقاليد اليهودية–المسيحية، بالفعل، جانبا من الثقافة الغربية، فإن الهيمنة الدولية لأمريكا تنصرف إلى

ما هو أبعد من ذلك، وتشير مخاوف قوى أخرى تتعلق بما يتجاوز مجرد "مشاعر الكراهية لإسرائيل وللتقاليد اليهودية-المسيحية".

فوفقا لأحد المواقع اليمينية المناهضة للإسلام : www.jihadwatch.org لقد لاحظ "أمير طاهري" -الإيراني بالمنفى- ذلك التعاون الماركسي-الإسلامي. فوفقا له، فإن اليسار الأوروبي المتعصب يرى المسلمين باعتبارهم "الطبقة الدنيا" الجديدة في أوروبا : "ولا يقدم التحالف الماركسي-الإسلامي في أوروبا برنامجا سياسيا متماسكا، إذ تنبني أيديولوجيته حول محاور ثلاثة : كراهية الولايات المتحدة الأمريكية، والحلم بإزالة إسرائيل واجتثاث جذورها من فوق خريطة العالم، والأمل في انهيار المنظومة الاقتصادية العالمية".

إذاً، فقد تم ترسيم حدود المعركة، الأمر الذي أدى إلى صعوبة اندماج المسلمين داخل المجتمع الأوروبي، وإغراق مخيلة المسلمين الأوروبيين بالصراع الأيديولوجي العالمي.

## انخراط المسلمين في المجتمعات غير المسلمة

يذهب العديد من المراقبين البريطانيين إلى تصوير المسلمين بالمملكة المتحدة بأنهم يقفون خارج النظام السياسي البريطاني. فبالنسبة للجيل الأول من المهاجرين، كانت تلك هي الحال غالباً، فقد كان الانخراط السياسي، وفقا لتجربتهم وخبرتهم الخاصة، عملية محفوفة بالأخطار حتى في أوطانهم الأم، والتي قد تكون أجبرتهم، بالفعل، على هجر تلك الأوطان تلمسا للأمن في ظل ثقافة مغايرة.

إلا أن "أمين ناصر" قد ذهب إلى أن مهاجري الجيل الأول من المسلمين في المملكة المتحدة يتمتعون بوعي سياسي، ويقومون بحشد تأييد المجتمع للتشريعات والحريات المدنية التي يتأثرون بها. ويصدق هذا، بصفة خاصة، على نطاق التشريعات المناهضة للإرهاب، والتي جلبت بعض المصاعب والمتاعب على الجماعة الإسلامية عن طريق تقييد حرية التعبير إبان حكومة تونى بلير.

وفى مثال مدهش على التواؤم، فإن نحو ١٠٪ من إجمالى تعداد الطلبة المسلمين فى فرنسا يختلفون الآن إلى مدارس كاثوليكية خاصة. وتعد ندرة المدارس الإسلامية هناك أحد أسباب تلك الظاهرة، أما السبب الأهم فيكمن فى إيمان الآباء والأمهات المسلمين بأن المدارس الكاثوليكية تنحو إلى تقديم صورة أكثر تسامحا عن دور الدين فى الحياة، فضلا عن إبدائها تفهُّماً أرحب للإسلام عما تبديه مدارس الدولة العلمانية. كذلك يميل هؤلاء الآباء والأمهات إلى الإعجاب بتشديد المدارس الكاثوليكية على عنصر السلوك الأخلاقى. أما المظاهر الكاثوليكية للتعليم، بحد ذاتها، فيبدو أنهم لا يعيرونها كبير اهتمام. وفى المدارس الكاثوليكية، لا يوجد حظر على ارتداء الفتيات لأغطية الرأس فى قاعة الدرس، وذلك على عكس المدارس التابعة للدولة. لذا، فوفقا للمعيار الدينى، يوجد تعايش صحى فى تلك المدارس، والذى قد يتيح قاعدة وأساسا جيدا للجيل التالى للتمتع بمناخ من التفاهم الدينى على أسس تعددية.

وبينما اتبعت إدارة جورج بوش الابن سياسات تخريبية هدامة فى أنحاء العالم الإسلامى كان من شأنها استفحال الأزمة وترسيخها، كان المجتمع الأمريكى ذاته أكثر نجاحا فى دمج المسلمين فى الإطار المجتمعى عما قام به الأوروبيون. فبداية، وكما أشرنا سالفا، فإن الكثير من المهاجرين إلى أمريكا الشمالية هم فئة متخصصة حظيت بمستويات تعليمية أرقى، فضلا عن كونها أقدر على تحقيق الاندماج الثقافى من الطبقة العاملة المهاجرة إلى أوروبا. وبالإضافة إلى ما تقدم، فإن مجتمعات أمريكا الشمالية هى بدورها مجتمعات مهاجرة. إذاً، فهى، بمحض التعريف، أكثر تعددية ثقافية من المجتمعات الأوروبية. فباستثناء ثلة قليلة من الشوفينيين الأمريكيين المؤمنين بوجوب بقاء الولايات المتحدة، بالأساس، مجتمعا للعنصر الأبيض ذى الأصول الأوروبية الشمالية والمعتنق البروتستانتية، فإن معظم الأمريكيين لا يشعرون، بالفعل، بأن قدوم مهاجرين جدد إلى الولايات المتحدة سيعمل على تغيير هيكل الثقافة الأمريكية على نحو كبير. أما المجتمعات الأوروبية،

كالدول الاسكندنافية وهولندا وبلجيكا، فإنها قليلة السكان ... إذا، فإن قدوم أعداد كبيرة من المهاجرين إلى أراضيها يمكن أن يفضى، بالفعل، إلى تغيير طبيعة الثقافة التقليدية المحلية بها، والتى طالما حوفظ عليها عبر الأجيال المتعاقبة. إن هذه البلدان لم تكن لتتوقع أن تكون مجتمعات متعددة الثقافة على أى نحو ملحوظ، لذا كانت التجربة فى تلك البلدان أقرب ما تكون إلى الصدمة القاسية.

أما "طارق رمضان"، والمشار إليه آنفا، فقد شدد على أن عملية اندماج المهاجرين فى بلدان المهجر ذات طبيعة مزدوجة. إذ يؤمن بأنه يتعين على المسلمين، أولا، تحديد مسئولياتهم والاضطلاع بها، ويلى ذلك المطالبة بحقوقهم فى تلك المجتمعات الجديدة. فوفقا له، يتوجب على المسلمين الذين يهاجرون إلى أوروبا بلا قيود ليس فقط تقبل، بل وتفهم ثقافة أوروبا ولغاتها المتعددة، وطبيعة تكوينها السيكولوجي المشتق من الخبرة التاريخية لها. فالمسلمون لا يمكنهم العيش خارج تلك الخبرة، أو أن يحيوا بمنأى عن الثقافة السائدة – إلا أن هذا ينبغى ألا يعنى، بالضرورة، تقبل المسلمين التام لجميع عناصر أنماط الحياة ومناحيها فى أوروبا. وقد لاحظ رمضان "وجود بعض غلاة التقليديين والمتشددين فى صفوف المسلمين الأوروبيين ... أولئك الذين لا يريدون الانخراط نهائيا فى المجتمعات الجديدة. وبالطبع، فما زال ثمة من يقول بأن : "كل ما هو أوروبى يخالف بالضرورة التقاليد الإسلامية". إلا أن التيار السائد للمسلمين فى أوروبا، والمكون من أولئك غير المستشعرين الغربة بها – هو جانب كبير من الحقيقة الأوروبية" ... تلك الحقيقة التى تخضع دائما للتطور والتكامل مع مولد أجيال متعاقبة من المسلمين فى المجتمعات الأوروبية وتنشئتهم بها.

كذلك، فقد أشار رمضان إلى أن أوروبا تمثل حضارة تتيح هامشا واسعا من الحرية الشخصية للأفراد كى يقوموا بما عساهم يريدون، فلا يوجد من يجبر المسلمين على اتباع أنماط حياة الآخرين. فإذا ما آمن الأوروبيون بضرورة حدوث تغييرات فى أنماط الحياة الأوروبية، يتوجب عليهم، إذا، أن يتوجهوا إلى صناديق

الاقتراع إذا كانوا يرغبون فى إحداث التغيير المنشود، إلا أنه يتعين عليهم، أيضا، أن يدركوا أن اندماج المسلمين فى المجتمعات الأوروبية لا يلزم المسلمين بأن يعيشوا كالدانمركيين أو الهولنديين التقليديين. وفضلا عن ذلك، يجب أن يدرك الأوروبيون كيف أن طبيعة الاندماج والتكامل ذاتها تتغير هى الأخرى. فأوروبا ليست ثقافة وحضارة ستاتيكية جامدة هاجر إليها المسلمون كى يمثلوا عنصرا تصادميا. لقد تكونت الحضارة الأوروبية على امتداد ألفى عام عن طريق تضافر العديد من الثقافات، والغزاة، والهمج، والحروب، والعوامل والمؤثرات الخارجية. لقد أسهم الإسلام بقسط وافر وفيض زاخر فى تطور الثقافة الأوروبية فى العصور الوسيطة، فضلا عن دوره فى نقل الفلسفة اليونانية. لذا، يجب أن يعمد الأوروبيون إلى التغيير، والارتقاء بثقافاتهم التقليدية فى تفاعلاتها مع قوى العولمة.

وفضلا عن ذلك، فقد تناول رمضان قضية الهوية والأسئلة المثارة بشأنها، مشيرا إلى الحقيقة الشهيرة من أننا جميعا نحمل هويات متعددة. لذا، فمن غير المنطقى سؤال المسلم : "أى من هاتين الهويتين تسبق الأخرى – الانتماء الإسلامى أم الانتماء لألمانيا؟" ويصف رمضان نفسه بأنه "سويسرى، أكاديمى، ذكر، مسلم، من أصول فلسطينية، ذو ثقافة أوروبية" ... وهلم جرا. وتتوالى الهويات المختلفة بما يتماشى والموقف القائم.

وتبدو تلك المشاكل مألوفة كذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث غالبا ما تنقلب التحديات الاجتماعية إلى ضرب من العنصرية "حين تكون مرتبطة بالمكسيكيين أو السود، أو حين ارتبطت، فى عصور سابقة، بالإيطاليين، والهنغاريين، والإيرلنديين، والروم الكاثوليك، واليهود، والصينيين، والذين كانوا فيما مضى يعتبرون غير مندمجين بالمجتمع". وهناك، بالفعل، قضايا وشئون اجتماعية ترتبط باندماج المسلمين فى المجتمعات الأمريكية والأوروبية، وغالبا ما تختلف المشاكل باختلاف الجماعات، وكذا باختلاف الأمكنة. على أن هذه المشاكل تنحو إلى الحل الذاتى عبر الزمن من خلال عملية الاندماج فى المجتمعات الجديدة،

وقبول تلك الأخيرة لها. ويمثل انتخاب "باراك أوباما" رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية خطا فاصلا فيما يتعلق بقضية الاندماج، كما كانت الحال من قبل عند انتخاب "جون كينيدى"، كأول رئيس للولايات المتحدة ينتمى إلى الروم الكاثوليك.

## مناهضة الغرب للإسلام

إن الأوضاع لا يمكن تحسينها بوجود آخرين فى الغرب ممن يرون أن الإسلام والمسيحية متداخلان فى صراع لا سبيل إلى تهدئة حدته – تلك الرؤية التى تبدو كانعكاس فى المرآة للرؤية العالمية لمتحمسى ومتعصبى تنظيم "القاعدة". فوفقا للقس "رود بارسلى"، من كنيسة "حصاد العالم"، فى كولومبوس بولاية أوهايو الأمريكية، والمستشار "الروحانى" للمرشح الجمهورى "جون ماكين" فى انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠٨، والذى كتب :

"إنه لمن الأهمية بمكان أن ندرك الوجه الحقيقى للإسلام، أى أن نراه وفقا لما هو عليه بالفعل ... إننى لا أومن بأن أمتنا يمكنها بحق أن تنهض برسالتها المقدسة، وتفى بأهدافها السماوية، إلا إذا أدركنا طبيعة صراعنا التاريخى مع الإسلام. إننى أدرك تماما أن هذه العبارة تبدو متطرفة، ولكننى لا أنزع للتملص من مضامينها. فالحقيقة هى أن أمريكا قد تأسست، ضمن أسباب أخرى، بنية القضاء على ذلك الدين الزائف وتدميره، فأنا أومن بأن أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ كانت دعوة للقتال ينبغى ألا نغفلها مطلقا.

لقد كان القضاء على الإسلام، ضمن أحلام أخرى، المحرك الذى دفع "كريستوفر كولمبوس" للإبحار صوب العالم الجديد عام ١٤٩٢، لقد كان كولمبوس أملا فى سحق الجيوش الإسلامية بواسطة الجيوش الأوروبية التى ستقوى شوكتها جراء الثروات المغدقة عليها من العالم الجديد. لقد كان هذا الحلم، ضمن أمور أخرى، هو الذى أنشأ أمريكا".

أما المبشر البروتستانتى الشهير "فرانكلين جراهام"، فقد أخبر وكالة أنباء

NBC عقب اعتداءات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ : "نحن لا نهاجم الإسلام، بل العكس هو الصواب. فالرب الذى يؤمن به المسلمون ليس هو الرب الذى نؤمن به. إنه ليس ولد الرب وفقا للإيمان المسيحى، والإيمان اليهودى- المسيحى. إنه رب مختلف، وأنا أومن أن الإسلام دين ينطوى على الشرور والآثام".

وقد أثار "برنارد لويس"، من المحافظين الجدد، والباحث المعروف فى الشئون الإسلامية – المخاوف من أن الاتجاهات الحالية لتعداد السكان فى أوروبا قد تفضى، بسهولة، إلى إنتاج "أوروبا مسلمة". إلا أن الأرقام الفعلية لا ترجح مقولة "لويس" ونبوءته. وقد لوح بعض المراقبين اليمينيين بخطر أن تصبح أوروبا، فى المستقبل، "جزيرة عربية" جديدة !! ويدعم مثيرو المخاوف بشأن الإسلام آراءهم ويدافعون عن موقفهم بالإشارة إلى ما لا يعدو إلا أن يكون، بحق، ملاحظات مثيرة للفتنة من قبل ثلة قليلة من رجال الدين الراديكاليين، من أمثال الشيخ السورى "عمر بكرى محمد"، والذى كان أثيرا لدى تليفزيون لندن :

"لماذا أدين أسامة بن لادن؟ أنا أدين تونى بلير، وأدين جورج بوش. لا ... إن أدين بن لادن مطلقا، أو غيره من المسلمين ... نحن لا نفرق بين المدنيين وغير المدنيين، أو الأبرياء وغير الأبرياء. نحن نفرق، فقط، بين المسلمين والكافرين. فحياة الكافر لا قيمة لها، إذ لا حرمة لها ولا قداسة".

وكذلك ملاحظة دياب أبى جهجه، اللبنانى المقيم فى انتويرب ببلجيكا، والذى اتهم وأدان مفهوم "الاندماج" أو "الاستيعاب"، والذى يحلو للغرب اعتباره "مفهوما مثاليا" – بأنه "اغتصاب ثقافى" يهدف إلى حصر جميع مسلمى أوروبا فى جماعة تابعة تفتقر إلى استقلالية القرار.

كذلك، فإن العديد من الملاحظات ووجهات النظر التى يبديها الوعاظ الراديكاليون، والذين اعتلوا منابر بعض المساجد فى الغرب، وبخاصة المملكة المتحدة، – تعد شائنة، ومحرضة، واستفزازية. إن هذه الملاحظات تحدث صدى فى

الصحافة، كما هي الحال بالنسبة للمتطرفين في المجتمعات الديمقراطية بأسرها. بيد أنه من المؤسف أنه في خضم "الحرب العالمية ضد الإرهاب" أن تضاعف أثرها المثير للفتن والقلاقل، بما يمكن أن يكون لها من تأثير فعلي في حفنة من شباب مهيأ لأن يكون شبابا متطرفا عدوانيا. إلا أن الموانع التي من شأنها الحد من حرية التعبير أو الخطابة ينبغي لها أن ترسم، بعناية وإنعام نظر، حدودا وتخوما قانونية. بيد أنه لا يستقيم اعتبار أحاديث جماعة صغيرة من المتطرفين الهامشيين ممثلة لطبيعة الإسلام في حقيقته، سواء في أوروبا أو غيرها. فالمشكلة الصغيرة ينبغي ألا يتم تضخيمها لتبدو ذات شأن أكبر.

وللأسف، فإن بعض المسلمين الذين يعانون اليأس، ويحيون حياة "العزلة" – يكونون أكثر ملاءمة وقابلية لتلقي وتقبل نظرية "المؤامرة" التي يتم تضخيمها، كما يكونون عرضة للتأويلات المبالغ فيها بشأن جرائم الغرب الكولونيالي الغابرة – وهي أحداث تنطوي ، بالفعل، على قدر كبير من الحقيقة، ولكنها تفتقر إلى المنظور التاريخي السليم والاتساق التكاملي. وعلى الطرف المقابل من ذلك الطيف أو المدى، فقد تمت تنشئتنا في الغرب، عامة، على الإيمان بأن التجربة الكولونيالية الغربية كانت إيجابية بالضرورة، إذ لم تفتقر إلى حسن نية أو سلامة مقصد. لذلك، فحتى الاتهامات الموثوقة بشأن وحشية الغرب وعدوانيته خلال تلك الحقبة الكولونيالية غالبا ما يتم إنكارها على الفور من قبل الغربيين باعتبارها إما مغالياً فيها، وإما هامشية. لذا، فإن مهمة المسلمين في طرح قضيتهم التاريخية المتعلقة بأحداث الماضي ليست بالأمر الهين، إذ لا يتم الالتفات إليها، حتى أن النقاد الغربيين لسياسات الغرب غالبا ما يتم رفض طروحاتهم، أو عدم إيلائهم أدنى اهتمام في الصحافة الأمريكية السيارة.

على أن الأمر الأكثر إزعاجا أننا نواجه، الآن، بتعليقات وملاحظات غاية في الغرابة والتطرف من فئة بأكملها من الأيديولوجيين اليمينيين الذي يتشككون بالفعل في مدى "إنسانية" المسلمين بالأساس – باعتبارهم نتاجا لثقافة عاجزة، كليا، عن

اللحاق بركب الحضارة العالمية – وكأن لم يكن للإسلام أدنى دور فى خلقها. فهل سبق وأن تم توجيه مثل ذلك النوع من الاتهام بحق أية حضارة أخرى؟ لقد تم اعتماد تلك اللهجة، بالفعل، ضد اليهود فيما شهده القرنان التاسع عشر والعشرون من جرائم منظمة بحقهم فى أوروبا الشرقية، وما نجم عنها من مذابح جماعية. وفى تلك الحالات، بالطبع، لم يكن الأمر مجرد تمييز على أسس إثنية، وإنما نظريات عنصرية وعرقية كاملة قد تم نسجها حول اليهود وثقافاتهم. وما تزال تلك المشاهد ماثلة فى الذاكرة الحية.

كذلك، فإننا نشهد اليوم جدالات ومناقشات عميقة حول مدى قدرة المسلمين على اعتناق منهج "الحداثة"، وما إذا كانوا قد كفروا بكل ما هو عصرى، وما إذا كان ثمة موطئ لقدم لهم، بالأساس، فى الغرب. إن المخاوف من اعتزام المسلمين "ابتلاع" الغرب ديموجرافيا تبدو سافرة، إذ يتم التصريح بها علانية، فضلا عن التصريح بالمخاوف من نية المسلمين لفرض الإسلام بالإكراه، ومن سحق الإسلام "للمسيحية" التى أصابها الوهن والمعتنقة من قبل أوروبيين لا حيلة لهم ... هؤلاء الأوروبيون الذين سيفقدون، فى اندفاعهم الليبرالى، أية قدرة على المقاومة. لقد تم ترسيم خريطة المعارك وحدودها، وتم رفع رايات القتال خفاقة. والأمر الذى يثير القلق والمخاوف هو تكرار التجربة اليهودية، إذ أضحى المسلمون فى المجتمعات الأوروبية، وكأنهم "اليهود الجدد". وتجدر الإشارة إلى أن عددا لا بأس به من اليهود أنفسهم يلمسون فى "الإسلاموفوبيا" الحالية ملامح العقلية ذاتها، والنهج نفسه لألمانيا النازية ولجرائم أوروبا المنظمة ضدهم.

## المسلمون الأوربيون والعلمانية

فماذا، إذاً، عن القضية المثارة دائما على بساط الجدل، والخاصة بمشكلات المسلمين بشأن العلمانية؟ إن وجود "هوية إسلامية" فى حد ذاته، وخصوصا فى فرنسا، ليفرض تحديا بوجه المفهوم الفرنسى للعلمانية، أو "اللائيكية". فاللائيكية لا

تستلزم الفصل الحاد ما بين الكنيسة والدولة، كما هى الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية، بل بالأحرى سيطرة الدولة على الشأن الدينى والرقابة عليه. وقد أدت تلك العلمانية الصارمة إلى صدام فرنسا مع المسلمين بها فى عدة مجالات، وبخاصة التعليم، حيث لا تسمح الدولة بالإفصاح الشخصى عما هو دينى فى المدارس التابعة لها، لذا، فإن القانون هناك لا يتيح لفتيات تلك المدارس ارتداء أغطية الرأس، وهى قضية ذات شأن كبير ورمزية ثقافية بالغة للمجتمع المسلم. إن وجود أقلية جديدة ذات حجم كبير نسبيا يمثل الدين لها أهمية كبيرة باعتباره رمزا للهوية – قد أجبر فرنسا، وأوروبا بصفة عامة، على إعادة التفكير فى معنى "اللائيكية"، حين جاءت متطلبات التعددية الثقافية الآن لتصطدم بالعلمانية الفرنسية. كذلك، فقد أجبر الأوروبيون، والذين تنخفض لديهم، عامة، معدلات التدين، على إعادة تناول دور الدين فى المجتمع، وفى حياة المجتمعات. ويبدو الأمر، إلى حد ما، مؤلما وذا شجون، مع إعادة بعث قضية آمن الأوروبيون أنهم قد أودعوها لتدخل فى سبات عميق بعد ما عانوا ويلات "الحروب الدينية" سابقا.

ويا للمفارقة ... !! فقد لاحظت الكنيسة الكاثوليكية تلك الظاهرة، ولم تمتنع عن أن تبدى بعضا من موافقة. فقد صرح الكاردينال "جان-لوى طوران"، رئيس إدارة التقارب ما بين الأديان بالكنيسة الكاثوليكية – أن "الدين" قد أصبح، الآن، محلا للحديث والكتابة عنه بأكثر من أى وقت مضى فى أوروبا. "ويرجع الفضل فى ذلك إلى المسلمين ... المسلمون، – والذين أضحوا أقلية ذات شأن فى أوروبا – هم من طالبوا بإفساح مساحة للأمور الدينية فى المجتمع ... نحن نحيا فى مجتمعات متعددة الثقافات والأديان، وهذا جلى تماما. يمكننا القول بأنه لا توجد حضارة دينية صرف...".

إن غلاة مؤيدى العلمانية ومناصريها – والذين تفتقر حياتهم الخاصة إلى أدنى ملمح دينى – قد سعوا إلى إثارة القضية فى حادثة "الرسوم الكاريكاتورية" الدانمركية الشهيرة، حيث قررت حفنة من العلمانيين الليبراليين بالدانمرك الحط

من قدر "الانضباط السياسى"، وممارسة حريتها فى التعبير وإبداء مواقفها المناهضة للدين، بنشر رسوم كاريكاتورية مسيئة للنبى محمد. وبطبيعة الحال، فقد كانت ردات الفعل فى العالم الإسلامى على ما اعتبر فعلا متعمدا للإساءة والتجديف – غاضبة وثائرة.

فما عسانا أن نفعل إزاء ذلك الحادث الذى استثار حرية التعبير ضد الحساسيات الدينية؟ لقد كان الدانمركيون يمارسون حقهم تماما فى التعبير بحرية عن أية قضية تتراءى لهم. ولكن السؤال الحقيقى ينبغى أن يكون : هل كان من الحصافة وحسن التقدير التهكم والسخرية من النبى محمد، لمجرد إثبات إمكانية القيام بذلك؟! هل كان هذا هو التوقيت المناسب، خاصة والعالم الإسلامى بأسره يشعر بوطأة الحصار الرازح تحته جراء "الحرب العالمية ضد الإرهاب"؟! إن الرسوم الكاريكاتورية تلك لم تثر الدانمركيين المؤمنين ضد الدانمركيين غير المؤمنين، وإنما بالأحرى قد أثارت الأخيرين ضد قمة الرمزية الثقافية، والحضارية لأقلية ضئيلة العدد مهيضة الجناح تفتقر بشدة إلى من يتحدث باسمها، أو يعلى من قدرها فى أوروبا – كذلك، مثلت تلك الرسوم، من وجهة نظر تلك الأقلية، اعتداء سافرا ضد كينونتها ووجودها، وسخرية من حضورها وبقائها. تلك الأحداث قد تكون قريبة الشبه من التهكم والسخرية من اليهود لادعائهم أنهم "شعب الله المختار"، والتندر من خلال الكوميديا الساخرة على "الهولوكوست" (إن إنكار "الهولوكوست" يعد مخالفا للقانون فى ألمانيا. كذلك، فقد مررت الجمعية الوطنية الفرنسية، عام ٢٠٠٦، مشروع قرار يقضى بحظر إنكار المذابح الجماعية التى ارتكبها العثمانيون بحق الأرمن خلال الحرب الكونية الأولى).

ففى حدها الأدنى، أبانت تلك الرسوم الدانمركية غيابا للتقدير وحسن التصرف، وافتقادا للرؤية الاجتماعية، رغما عن كونها قانونية وشرعية بالكلية. ولكن ليس كل ما هو قانونى حصيفا بالضرورة. وفى حقيقة الأمر، فإن الغرب مواجه هنا بضرورة التوفيق بين قيمتين مقدستين لا تقبلان التحدى أو المساس

بهما : ففى الغرب، لا يمكن بحال مجرد التفكير فى مناقشة إمكانية تقليص حرية الرأى أو التعبير – إذ يبقى هذا الحق مقدساً. أما بالنسبة للمسلمين، حتى أولئك من غير ذوى النزعة الدينية، فإن مناقشة مجرد احتمالية التهكم أو التجديف فى حق الإسلام، أو فى ذات النبى محمد وشخصه ، لا يمكن تخيلها بتاتا– فتلك، إذاً، حرمة لا تنتهك. (ملاحظة : يعمد المسلمون، الآن، إلى الدفع بفنانيهم الكوميديين والمونولوجست – فى أوروبا وأمريكا الشمالية – للتهكم والسخرية من مجتمعاتهم الإسلامية ذاتها على نحو لا يستثير، مباشرة، مخاوف المسلمين من مشاعر العداء أو التمييز ضدهم).

ولقد أوجزت جماعة "الأزمات الدولية" المرموقة، بإتقان، تلك الأزمة فى تحليلها للاضطرابات التى سادت باريس عام ٢٠٠٦، وذلك على النحو التالى :

إن المظاهر الراديكالية، وأعمال الشغب التى يقوم بها الشباب المسلم، على الأقل فى فرنسا (ومن المحتمل، أيضا، فى المملكة المتحدة) لا تعكس وجود الإسلام السياسى، وإنما تعكس غيابه، وإخفاقه ... لقد أخفق الإسلام السياسى، بجدارة، فى تقديم حلول للمشاكل التى تفرضها الأحداث الراهنة. ونتيجة لذلك، تحول الشباب إلى "السلفية"، وهى حركة محدودة ترتكن إلى حرفية النص المقدس مشددة على ضرورة التزام الفرد بالتعاليم الدينية وفق قاعدة تأويلية ضيقة الأفق تشجع الانسحاب من المجتمع غير المسلم، وتدعو إلى العودة للذات بقدر من الانطوائية ورفض المجتمع والثقافة الفرنسيتين. إذاً، فالصراع ينجذب نحو "حرب ثقافية حضارية" وليس نحو "حرب سياسية". ويخلق ذلك، بدوره، نوعا من "عدم التسييس" فيما يخص المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وهو فراغ سياسى خطير ... وعدم رغبة فى إشراك النظام السياسى من خلال القنوات السياسية لإبداء الاستياء والمطالبة بالثأر. هذه العوامل، كلها، تخلف كتلة شبابية، لا ينتظمها رابط، مخيبة للآمال لما هى عليه من غضب واستثارة وعدم نضج ... تلك الكتلة التى تعبر عن مظالمها، على نحو متنام، من خلال "السلفية الجهادية"، وأعمال الشغب، والتى

يشعل وقودها ويذكى نيرانها، أحوال معيشية غير مستقرة، وبطالة فاشية، وتمييز اجتماعى، وما استجد من قيام "الآخر" من الحط من قدر الإسلام.

**وقد كتب أحد البريطانيين بعد تحوله إلى اعتناق الإسلام:**

"نحن المسلمين بحاجة إلى "أجندة" جديدة، على أنه يجب ألا يتم تعريف ذلك بكونه "ليبرالية إسلامية". فالليبرالية فى أمور الدين تنحو إلى إحداث ضعف وهشاشة فى الإيمان. وبالمقابل، فنحن نريد أن نرجع ثانية إلى تقاليدنا، والتنقيب عن موارد تمكننا من استعادة روح صحابة النبى محمد الدمثة والمرحة.

كذلك، فمن الجلى استحالة تبنى الدعوة إذا ما هجرنا التقاليد والأعراف من أجل الإصرار على تأويل الشريعة وفق منهج يتسم بضيق الأفق وعدم المرونة. إن جيراننا لن يلتفتوا إلى دعوتنا إياهم إلا إذا أمكننا أن نريهم أن ثمة تشابهاً قائماً فيما بيننا، وأن لدينا أموراً ذات قيمة تغرى بالتناول، ولعل الأهم أن نجعلهم يدركون قيمة الانضمام إلينا. إن "الأجندات" الإسلامية الراديكالية المتزمتة تبدو متبناة من قبل أناس متعصبين لا تعلو وجوههم ابتسامة، بل ينم محياهم عن توترات كامنة، وصلف وبؤس باديين".

وعلى الجانب المقابل، تبدو أمارات مبشرة تجم الفؤاد وتشد الأزر. فإذا ما دلف المرء إلى موقع إسلامى بشهرة "إسلام أون لاين"، ومقره دولة قطر ... وطالع القسم المخصص للإجابة عن الأسئلة المطروحة لوجد ما يدعو للتفاؤل. ويرتبط هذا الموقع الإسلامى بواحد من أبرز رجالات الدين، ممن يتمتعون بموثوقية وسلطة فائقة ... الشيخ "يوسف القرضاوى".

**وفيما يلى نجد عرضا لأحد الأسئلة والإجابة عنه:**

س: أعزائى ... أريد أن أعرف، كمسلم، يحيا فى الولايات المتحدة الأمريكية، واجباتى تجاه جماعتى هنا، أقصد تجاه وطنى. كيف يمكن أن أدعمه وأؤازره ضد

الأزمات المحدقة به من دون المساس بواجباتي الدينية؟ أريد أن أعرف كيف يتناول "الإسلام" هذا الشأن؟

ج : بواسطة د/مزمل صديقي، رئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية :

"يجب أن ندرك جيدا أن الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ، لم تعد كما كانت قبل ذلك التاريخ. فقد تغيرت أمور عدة، وأمور أخرى في طور التغيير، بل وأمور سوف يطالها التغيير. إذاً، فيجب كمسلمين أن نقيم أنفسنا، ونعمل على تغيير بعض طرائق التفكير والسلوكيات الخاصة بنا. كذلك، علينا أن نخرج من عزلتنا، ويتعين علينا نبذ خلافاتنا الثانوية والعمل يدا بيد. ويجب علينا تقديم أنفسنا للمجتمع، وطرح قيمنا ومبادئنا الإسلامية أمامه، كما يتعين أن نسهم بنصيب وافر في هذا المجتمع من أجل السلام، والتناغم، وإرادة الخير، وإرساء قواعد المجتمع الخير، ليس لأنفسنا فحسب، وإنما للأمريكيين بأسرهم.

... إنه من الأهمية بمكان أن ننشئ أسرا خيرة، وأن نبقى على الروابط بين الأسر وبعضها البعض، ولكن علينا ألا نقتصر على أسرتنا فحسب، وإنما النظر إلى الناس كافة، والتعامل معهم باعتبارهم أسرة واحدة ...

فالدين ليس طقوسا وشعائر فحسب، وإنما هو إرساء السلوكيات المثالية وانتهاج الأخلاق القويمة. والدين دعوة للحدب على الفقراء ورعاية المعوزين. إن الدين يدعو إلى محبة جيراننا والإحسان إليهم ...

يتعين علينا أن نعمل جاهدين من أجل إرساء قيم العدالة والتوافق فيما بين الناس أجمعين، وكذا فيجب أن تكون نظرتنا شاملة، وليست ضيقة قاصرة ...

إن العدالة تتطلب أن يتم تقويم الباطل باستخدام الأساليب الخيرة. فالجور لا يمكن أن يُزال بجور آخر. فلا يمكن لخطأين أن يصنعا صواباً، والغايات النبيلة لا تسوغ الوسائل الوضيعة".

وقد ورد تعليق للدكتور/طه جابر العلوانى (الذى كان يشغل منصب رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية، والتى تعرف حاليا بجامعة قرطبة، كما كان يشغل منصب رئيس المجلس الفقهى لأمريكا الشمالية :

"لقد أوضح الباحثون المسلمون المرموقون، بجلاء، أن كل مسلم يحيا فى الغرب، بصفة عامة، وفى الولايات المتحدة الأمريكية، بصفة خاصة – تقع على عاتقه مهمة المشاركة فى إرساء حياة طيبة خيرة لكل من يحيا معه كأعضاء فى المجتمع، بغض الطرف عما إذا كانوا مسلمين أو غير ذلك. فالإسلام يحث المسلمين أن يصبحوا فاعلين، وكذلك مترقبين لما عساه أن يحدث فى أى مجتمع يحيون فيه ... بيد أن ذلك لا يقصد به أن يخاطر المسلم بتعاليمه الدينية حين تكون بعض السياسات المتبعة من قبل حكومته فى غير مصلحته، إذ يجب أن يجاهد مبتغيا الحق والعدالة أينما يكون، وفى أى منصب يشغله".

وأخيراً، وكما هى الحال فى جميع الأديان، يود المسلمون معرفة وجهات نظر مرجعياتهم وعلمائهم الدينيين وأحكامهم، بيد أنه، وفى النهاية، نجدهم يصدرون أحكامهم الذاتية بشأن كيفية الحفاظ على المبادئ والقواعد الإسلامية داخل المجتمعات الغربية، حين يكون التوصل إلى صيغة توافقية أمرا ضروريا من دون الإضرار بهم. (يحرم البابا موانع الإنجاب، إلا أن المؤمنين من الكاثوليك فى إيطاليا لديهم أدنى معدلات الإنجاب فى أوروبا). وفى النهاية، سيقوم المسلمون بموازنة إحساسهم الفطرى مع التأويلات التقليدية لرجال الدين. بل لعل الأرجح أن يحيا هؤلاء من دون القلق بشأن المتناقضات المحتملة. فكثير من المسلمين لا يرتضى جميع الأحكام والفتاوى الصادرة عن رجال الدين على أنها "دوغما" لا يمكن رفضها، فضلا عن أن هذه الأحكام وتلك الفتاوى تتباين كثيرا وفقا لمصادرها. ويؤمن الكثير من المسلمين، والذين يصوتون لصالح الغرب عن طريق قدومهم إلى أراضيه، أنه لا ضير من أن يحيا المرء فى مجتمع غير مسلم، على أن يمارس حياته وفقا لمعايير إسلامية ما استطاع إلى ذلك سبيلا، عن طريق التعلم

على مر الأيام، والتكامل بصيغ أكثر اندماجا مع الأجيال المختلفة.

إن ما سبق كله لا يرتبط بالإسلام فى حد ذاته، وإنما يرتبط بالديناميكيات المعقدة والمتناوبة للاندماج والتعددية الثقافية. إن الأوروبيين ليتعين عليهم قبول الثقافة الإسلامية كإحدى مكونات أوروبا الجديدة - مثلما تم قبول الثقافات اليهودية، والهندوسية، والصينية باعتبارها إسهاما فى ثراء التعددية الثقافية بالغرب. كذلك، يجب علينا أن نحذر من "أسلمة" المشاكل الخاصة بالتعددية الثقافية، واندماج المهاجرين فى مجتمعاتهم الجديدة.

وتبقى ملاحظة أخيرة بشأن نمو التعددية الثقافية وتطورها : إذ كتب ويليام دالريمبل، الصحافى والكاتب البريطانى : "إن الأمر ليبدو عصيا على التصديق، إنه فى عالم محوره أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر، وأسامة بن لادن، و"صدام الحضارات"، يكون أكثر الشعراء مبيعا فى الولايات المتحدة خلال تسعينيات القرن العشرين هو رجل دين مسلم حصل تعليمه بطرق تقليدية، وقام بتدريس الشريعة الإسلامية فى المدارس المخصصة لذلك". لقد كان دالريمبل يشير، بالطبع، إلى شاعر القرون الوسطى فارسى الأصل تركى الإقامة، جلال الدين الرومى، أحد أبرز شعراء الصوفية المحبوبين على امتداد العالم بأسره، إذ إن أشعاره تعد شفاء روحانيا للعالم برمته. وبالفعل، فإن روحانية الإسلام تظل إحدى إسهاماته الخالدة فى مسار الحضارة الإنسانية. وكم سيبدو الأمر عظيماً إذا تم إفساح المجال، بعض الشىء، أمام تلك الملامح الروحانية فى خضم التنازع والاضطراب السياسى والثقافى الذى يسم حياة كل من المسلمين والغربيين، فيما تدور الجدالات دورتها الخالدة حول الدين، والهوية، والمواطنة، والتسامح، والانتماء.